ملامح وأشكال الهُويّة في رواية فضل الليل على النهار لياسمينة خضرا

Aspects and Forms of Identity
inYasminaKhadra's What the Day Owes the Night

صالح مفقوده
جامعة بسكرة - الجزائر(s.mefkouda@univ-biskra.dz)

تاريخ الاستلام: 2022/01/14 تاريخ القبول: 2022/03/12 تاريخ النشر: 2022/12/15

ملخص

سنتطرق في هذاالمقال إلى الدّراسات السّابقة التي تناولت موضوع الهُوية في رواية فضل الليل على النهار للكاتب الجزائري الفرانكفوني ياسمينة خضرا، والتي قام بترجمتها عن اللغة الفرنسية محمد ساري، وإضافة إلى هذه النسخة المترجمة سنعود بين الحين والآخر إلى النّص الأصلي،محاولين الاقتراب من مفهوم الهوية لنتصدى بعدئذ إلى ملامح وأشكال الهويات المختلفة الواردة في الرّواية على اعتبار أن الرواية هي رواية متعددة الأصوات، أي رواية بوليفونية والمصطلح لميخائيل باختين. وكون الرواية كذلك فإنها ستسمح لنا بتتبع مختلف أشكال الهويات،وسنكشف طبيعة العلاقة بين تلك الهويات، وكيف عرضتها الرواية من خلال العناصر السردية كنعصر الشخصية أوالفضاء الجغرافي، لننتقل في الأخير إلى ما قالته الرواية بخصوص مسألة الهوية .

الكلمات المفتاحية : الهوية ؛ البوليفونية ؛ الأنا ؛ الآخر.

Abstract:

In thispaper, we examine previousstudiesthatdealtwith the subject of identity in the novel "What the Day Owes the Night", written by Francophone Algerian writer Yasmina Khadra. It wastranslatedfrom French by Mohamed Sari, and in addition to the translation, werefer, in thiswork, now and then to the original text in French. Furthermore, wetackle the concept of identity and touchuponitsdifferent aspects and forms as included in the novel. The latter ischaracterized by multiple voices, i.e. apolyphonicnovel as coined by MikhailBakhtin, and in beingso, itallows us to tracktheseforms.Weuncover, the type of relationshipbetween all involvedidentities, and how the novelpresenteditthrough certain narrative elementssuch as character and setting. In the end, we look intowhatthisliterarywork has to say about the subject of identity, as well as newly-presented insights on the matter

Key words: Identity, Polyphonic, the Self, the Other.

المؤلف المرسل: صالح مفقوده ، الإيميل: (s.mefkouda@univ-biskra.dz)

1 مقدمة

تميزتْ رواية الكاتب الجزائري الفرانكوفوني "ياسمينة خضرا" فضل الليل على النهار بأنّها روايةٌ تناولتْ بجرأة مختلفَ الهُويات التي كانت تعيش في الجزائر قبل الاستقلال، وقد تَتَبعتِ الرواية هذه الهويات بعد استقلال البلاد أيضا فركزتْ على المعمرين الذين غادروا البلاد ولكن الحنين ظل يستبدُّ بهم، كما أشارت إلى الصراع الداخلي بين المجتمع الجزائري في فترة التسعينيات، ولبيان ملامح الهوية بمختلف أشكالها كان لزاما البحث عن الأبحاث والدراسات التي تناولت هذا الموضوع والتي نذكر منها:

-التّقمص الكولونيالي وازدواجية الهوية في رواية فضل الليل على النّهار لياسمينة خضرة(بوديار و كبير، 2021)

-إشكالية الهُوية في ظل الرواية الجزائرية –لعمارة لخوص- ياسمينة خضرا أنموذجا(حسني و قيدوم، 2021)

-تمثلات الهوية في رواية فضل الليل على النهار للروائي الجزائري ياسمينة خضرا (حسني و قيدوم، تمثلات الهوية في رواية فضل الليل على النهار، 2021)

وبالرجوع إلى المقالات المذكورة فإنها لم تتكلم عن الخلفية النظرية لمسألة الهوية، ولم تتكلم عن الأشْكال التي سنتطرق لها مما يبرر العمل الذي سنقوم به، وقد نتمكن من الاقتراب من نظرة الكاتب المتميزة لمسألة الهوية التي تتنازعها أطرافٌ مختلفة ظلت ردحا من الزمن تعيش على الأرض الجزائرية رغم اختلافها من حيث اللغةُ والدينُ وكثيرٌ من عناصر الهوية. ولعل الاستفادة الأكبر كانتْ بالرجوع الى أطروحة الدكتوراه الموسومة ب ملامح الهوية في السينما الجزائرية (مولاي ، السنة الجامعية 2012-2013)، حيث تمكنتُ من خلال الفصل النظري فيها حول الهوية من الرجوع إلى مراجع مهمة في هذا الشأن.

2 البوليفونية

تتميز رواية فضل الليل على النهار بأنها رواية متعددة الأصوات، أي رواية بوليفونية على حد تعبير "ميخائيل باختين"الذي درَس روايات "دُوتْسُوبِفِسْكي" واعتبرها نموذجا في إيراد الإيديولوجيات داخل الرّواية، حيث قال: عن "دُوتْسُوبِفِسْكي" إنّه خالقُ الرواية المتعددة الأصوات Polyphonie فلقد أوجد صنفاً روائياً جديداً بصورة جوهرية .(ميخائيل، 1986، صفحة 11) و"تعدد الأصوات" مفهوم يشير إلى تعدد الإيديولوجيات في الرّواية، يضاهيه مفهوم آخر عند باختينهو"الحوارية Dialogisme "إذ يخلق"رواية متعددة الأصوات" هي نفسها "الرواية الحوارية/ الديالوجية". أما

النقيض من ذلك والذي ترفضه نظرية "باختين" هو مفهوم "أحادية الصوت" الذي يشير إلى إيديولوجيا واحدة سائدة في الرّواية، ويماثله مفهوم "المناجاتيةMonologisme" حيث يخلق"رواية أحادية الصوت" هي نفسها "الرواية المناجاتية/ المونولوجية"

إن الرواية الحوارية هي المثلى لدى "باختين" لكونها تمنح لكل الأفكار الحقَّ في التَّعبير والتَّمَثُّلِ في هذا الملفوظ، كما تُحَقِّقُ صراعًا إيديولوجيا عميقًا، وتعددًا للآراء، ورؤيةً أكثر شُمُولًا للواقع، مما يُكْسِبُها كمًّا من القُرّاء الذين يَجدون بها أفكارَهم ورُؤَاهم المختلفة. وتفعل الرواية ذلك عن طريق الطَّرْح الإيديولوجي الذي تُجَسِّدُه الشّخصيات بالتكافؤ، دون انحياز من الكاتب لواحدةٍ على حساب الأخرى، بقدر ما يُعْطِيلكل الشخصيات القدر التكافئ من الاهتمام، والمساواة بينها من حيث إبراز جوانبها الحسنة والسّيئة، فيسعى الكاتب بذلك لتحقيق حيادٍ مطلقٍ، وتركِ القارئ حرًّا في الاختيار بين هذا الزَّخم الإيديولوجي .

استلهم "باختين" توجُّهَه هذا من تعددية الأصوات والألحان في الموسيقى، فمنها تَعَدَّدَت الأصوات واللّغات في الرّواية. واستلهمه أيضا من خلال إقامة علاقة بين العالم الروائي والكرنفال الذي ظهر وسط الثقافة الشعبية للقرون الوسطى وعصر التنوير.

3 مفهوم الهوية

مصطلح الهوية مصطلح واسعٌ فضفاض يتوزع على مجالات بحثية واسعة، حيث يمكن أن يتم تناوله من جانب نفسي أو اجتماعي أو ديني أو سياسي، فهو لفظ بيْني، ومن هنا صعوبة ضبطه وتحديده، وهو ما وصفه به الباحث أحمد مولاي الذي أشار إلى « تناثر هذا المفهوم على ضفاف تخصصات عدة داخل حقل العلوم الإنسانية من الأنثروبولوجيا إلى السّوسيولوجيا، ومن السّيكولوجيا إلى علوم السّياسة»(مولاي ، السنة الجامعية 2012-2013، صفحة 32) وفضلًا عن ذلك، فمفهوم الهُوية متطور متجدد، وليس ثابِتًا، وهذه صعوبة أخرى في معالجتهومحاصرته، غير أنّذلك لا يمْنعُنا البتة من تتبع ملامح الهُوية من خِلال مواصفاتها العامةفي الرواية موضوع دراستنا. وللاقتراب من هذا المفهوم نقول إنّ الهُوية كمفهوم قديم منذ الفلسفة اليونانية حيث تعلق لدى المعلم الأول ارسطو بخاصية الشيئ أو ذاتيته أي أنّ الشيئ هو هو بخصائص محددة ثابتة مميزة، ليضيف بعد ذلك "جون لوك" قضية الوعي والذّاكرة التي تُسْهِم في تشكيل الأنا كذات مُطابِقة لذاتِها أي لها هوية (نهران، 1994، صفحة 44) وبعد ذلك يضيف "شوبنهور" عنصر الإرادة لتحقيق الهوية. ويرى "رالف لينتون" أنّ الهوية

تتحدد انطلاقًا من النّظام القيمي والأخلاقي، ومن النّموذج الثقافي للمجتمع، وهو بذلك يربط الهوية بالواقع الاجتماعي، وما يفرزه من أنظمة أخلاقية وثقافية وغيرها، وهذا التّصور يتوافق إلى حدٍّكبير مع طبيعة المجتمعات المتجددة والمتطورة باستمرار، وهي النظرة التي تحضى بقدر من الاهتمام في الوقت الحاضر (مولاي ، السنة الجامعية 2012-2013)

ويمكن القول إن الهوية« تمثل اسما آخر للوجود بحكم ارتباطها بالماهية والتحول والزّمن » (قحام، 2016-2017، صفحة 02)

4 أشكال الهوية في الرواية

1.4 الهوية المحلية

نعني بها السكان الأصليين، وهذه الهوية "هوية إِثْنِية Identité Ethnique"على اعتبار أن الهوية الإِثْنِيّة هي وعي مجموعة تتشارك في نفس الانتماء الجغرافي، والانحدار من نفس العرق، واللغة أو اللهجة الواحدة، والنمط المعيشي المشترك..لها موقعها الاقتصادي و السياسي والثقافي مقارنة مع مجموعات أخرى من نفس الدولة، وغالبا ما كانت هذه الهوية محظورة سياسيا في الكثير من الدول باسم الحفاظ على "الوحدة الوطنية" (بريجة، 2015-2016، صفحة 48).غيرأن السلطة الفرنسية الحاكمة في الجزائر وقت الاستعمار لم تستطع تجاهل هذه الهوية باعتبارها أمرا واقعا، وكلما حاول المستعمر طمْس معالم الهوية إلا وازداد الشعب تمسكا بها.

2.4 التشبث بالأرض

يُمثل الهوية المحلّية سُكان الجزائر الأصليون من العرب والبربر الذين ارتبطوا بأرضهم إلى أن جاء الاستعمار الاستيطاني، فحرمهم من أرضهم وخيراتِها، حجتُه في ذلك نشر المدَنِيّة والتحضر، وتعمير البلاد، الأمر الذي يعتبره المعمرون كافيًا للاستيلاء على البلاد، وتسخير العباد، وقد عبر الكاتب على عن ذلك بصورة شاعرية على لسان البطل "يونس" الذي ردّ على المعمر "جيم صوزا" بقوله عن السّاكن الأصلي لهذه الربوع : « كان هذا الرّجل مُطمئنًا، واثِقا منْ نفسه، لأنّه كان حرا طليقًا، لم يكن يملك إلّا نايًا كي يُطَمْئِن مَعِزَه وعصًا لردْع الذئاب، حينما كان يتمدد تحت ظل هذه الشّجرة يكفيه أنْ يُغْمِضَ عينيه كي يسمع كيانه ينبضُ بالحياة، يساوي رغيفُه والبصلةُ التي يأكلها ألفَ وليمة...كان يرى نفسه في أَمان لأنّه لا يُضْمِرُ الشر لأحد إلى غاية اليوم الذي رأى الهم آتيًا من الأفق الذي يؤثث أحلامه، سلب منه نايه

وعصاه، أراضيه وقطعان غنمه، وكل ما يُعطر روحه، واليوم نريد أن نقنعه بأنّه غريبٌ في هذه الأرض وأنّ وجودَه كان عَرَضًا...لستُ موافقا معك السيد صوزا» (ياسمينة، صفحة 220)

لقد أقام الكاتب مُرَافعَةً، بيّن خلالها المُعَمِّر "صوزا" أحقية المستوطنين في امتلاك الأرض والانتفاع بخيراتها، لأن أجدادَه همْ من قاموا بتعميرها، وتعبوا في تحويلها إلى الصورة التي هي عليها بعد أن كانت بورًا، وبعد أن تعاقب عليها خلقٌ كثير، لكن "يونس" يرفض هذا الطرح، ويقول بأحقيّة صاحب الأرض في الاستمتاع بأرضه، فقد كان يعيش في أمن وسلام إلى أن جاءه الغزو بحجة البناء والتعمير.

إن بين الأرض وصاحبها علاقة حب، فهي جزء منه وهو جزء منها، يصف الطفل "يونس" أباه الفلاح بالقول: « يُحِب البقاء وحيدًا، مُتشبثا بمحراثه، شفتاه بيْضاوان من الزّبد أحيانًا يبدو لي كربٍ يعيد خلْق عالَمه ... لم يكنْ يشعر بالراحة إلّا في هذا المكان، وسط كونه الأشْقَر . ليس لأحدٍ القُدْرةُ على إلهائه، ولا حتّى أعز الناس لديه»(ياسمينة، صفحة 08) حب الفلاح لأرضه هو الحب الأول الذي لا يُشْغِله عنه شاغل خاصة مع موعد جني المحصول، وهو ما عبّر عنه الكاتب بقوله : وسط كونه الأشقر «Au milieu de son univers blond» (Yasmina, p. 07) »

يقول محمد بوعزارة عن علاقة الجزائري بأرضه :

«علاقة الإنسان الجزائري بالأرض وبالفلاحة علاقة وجدانية منذ قرون.بل إن علاقة الجزائري بأرضه ترتبط بالشرَف الجزائري الذي ينطلق من مقولة: إن العرض والأرض شيئان مقدسان لدى الجزائري.

فمن انتُزعت منه أرضُه كمن انتُهِكَ عِرضُه و دِيسَ شرفُه.ولذلك قاوَم الجزائريون مختلف الغزاة على مرّ العصور دفاعا عن العِرْض والأرض» (بوعزارة، 06 ماي 2020)

وقد كان اغتصابُ الأرض، ونهب خيراتها واستغلال السّكان في تعميرها وفلاحتها واحِدًا من الأسباب التي أدتْ إلى نمو الحركة الوطنية، وقيام الثورة، وهي المسألة التي وصفها أحد الثوريين في الرواية عندما سأله يونس:

- «ماهذه القصة؟
- قصة الوطن، دكتور. » (ياسمينة، صفحة 238)

وبذلك اتصفت الأعمال السّاعية لتحرير الوطن بأنّها وطنيةٌ، بما في ذلك الأغاني الوطنية، والنشيد الوطني، والحركة الوطنية، وجبهة التّحرير الوطنية. وبالرّغْم من أنّ الاتفاقيات بين الجزائر وفرنسا تقتضي بحق الأقدام السّوداء في البقاء في الجزائر، والاحتفاظ بممتلكاتهم إلّا أنّ ماضيهم السيئ مع السكان لمْ يسمحْ ولمْ يمَّكِن لهم البقاء فاضطروا إلى الرحيل اضطرارًا في ظروفٍ استعجالية صعبة وصفتها الرواية بما يشبه المأساة بالنّسبة لهؤلاء حيث تخلّوا عن ديارهم وأموالهم أو باعوها بثمن بخس. ف"أندري" أحرق حانته التي طالما تعِب في إنشائها، وطالما افتخر بها: « بكى أندري، وذرف جميع دموع جسده... خرج إلى الفناء يبحث عن جيركانات البنزين، رشَّ المصرف والطّاولات والجدران والأرضية، حكَّ عود الكبريت وترك النيران تنتشر داخِل الصّالة ...وقف في الفناء وتابع منْذَهِلا اختراق السْنَايْك الذي شَغُف ببنائه وتسييره بحماس فيّاض لا مثيل له، ليتبخر الدُّخان الصاعِد في الليل السّاكن، عندما ابتلعت النيران السقف التحق اندري بسيارته دون أنْ ينطِق بكلمة، دون أنْ يُلْقِيَ نظْرةً باتجاهي. اشعل المُحرك أرخى الفرامل وسار ببطء باتجاه مَخْرج القرية» (ياسمينة، صفحة 264)

3.4 مساكن الأهالي ومساكن المُعمّرين

تمتّع المُسْتوْطِنون في الجزائر بأحسنَ الأراضي، وسكنوا أجمل الدّور، بينما عاش السّكان على الهامش يُعانون الأمرين، ففي مدينة وهران التي نزحتْ إليها أسرة "ياسين" نجد أحياء المدينة التي يسكنها الأوروبيون جميلةً خلّابة « ترْتفِع المنازِلُ الجميلة جدًا من جميع الجهات، مُنْسجِمةً خلْف سياجاتٍ حديدية مدْهونة بالأسود مهيبة وأنيقة، تستريح العائلات بداخل الشرفات حوْل طاوِلات بيضاء مُزينة بقنينات وكؤوس عصير البرتقال الطويلة»(ياسمينة، صفحة 16) وغير بعيد عن وسط المدينة وفي "جنان جاتو" تتغيّر الحياة كُلّيةً : « جنان جاتو مزْبلة من الأكْواخ والأجمات المتنوعة الغاصة بالعربات المُفككة والمُتسولين والباعة المُتجولين والحمّارين المُتخاصمين مع بهائمهم وحاملي المياه والمشعوذين » (ياسمينة، صفحة 18) وبذلك فإن الرواية تقدم لنا الصورة ونقيضَها، وقد وصف الكاتب كلَّ ذلك بعيون الطفل "يونس" الذي انتقل من "جنان جاتو" ليعيش عند عمه الصيدلاني في حيٍّ أوربيٍّ أنيق، ويزداد عمق المأساة حين ينقل لنا صورة أكثر بَشاعةً ومأساوية وتتعلق بوصف المكان الذي يسكنه "جلول" في ضواحي "ريو صالادو"، وقد أوصله "يونس" بدراجته و"جلول" في وضعية

مُزْرية إثر الضرب الذي تلقاه من سيده "أندري" لا لشيئ إلا تخويفًا له وحقدا على بني جلدته ممن يطالبون بالحرية والمواساة، يقول عن ذلك الحي:

« أطفالٌ عُراةٌ يلْعبون وسط الغُبار، بطونهم منتفخة، والمناخير يُحاصِرها الذُّباب ...فزيادة إلى الرائحة العفِنة، يوجد طنين الذباب شرِها عنيدًا لا يتوقف عنْ تخْصيب الجو المُلوث بأَزيز مشؤوم ...عند أسفل جدار من الطوب قُرْب حمارٍ غافٍ، تتربع مجموعةٌ من الشيوخ، الأفواه مفتوحة للغبار والذُّباب، غير بعيد عنهم يقف مجنون، رافِعًا ذراعيه الضامرتين إلى السّماء، يتوسلُ شجرةً مُقدّسةً مُزينة بالشرائط الزركشية والتّمائم وبقايا شموع، ثم لا شيئ، كما لو أنّ الأصِحَاء هاجروا الدُّوَارَ وسلّموه للمرضى والمعتوهين والأطفال المتوحشين»(ياسمينة، صفحة 134) ومن هذا الجو المشحون سيخرج واحدٌ من الثوار هو "جلول" ومن أمثاله من الأحياء ك"جنان جاتو" يَبْزُغُ نجمُ المجاهد فيما بعد"هواري". إنه التناقض الكفيل ببروز الحركة التحررية.

وفي الريف كما في المدينة يُقدم الكاتب صورتين متناقضتين عن مساكن المعمرين وأكواخ الجزائريين

ففي الطريق الى "ريو صالدو"« تنبثق منازلُ أنيقةٌ هنا وهناك وغالبا فوق تَلَّةٍ صغيرة لتُشْرِف على المناظر الخلابة، مُحاطة بأشجار شامِخة وحدائق، أما الطرق المؤدية إليها فكانت مُعَلّمةً بأشجار الزّيتون والنّخيل الباسقة. بين الفينة والأخرى يضهر معمِرٌ يمشي وسط حقوله أو يمتطي حصانا يركض بسرعة حيوية، لا ندري باتجاه أية سعادة. وبعد ذلك ودون سابق إخبار كما لو أنها تتعمدُ على تنغيص الروائع المحيطة تنبثق أكواخٌ قصديرية وسط التضاريس...مسحوقة تحت ثقل البؤس والشؤم ...لا تكاد تظهر سقوفها، وهي قاب قوسين أو أدْنى من السّقوط على أهلها»(ياسمينة، صفحة 83)

4.4 اللّباس

مِنْ ضمن مايميز الهوية الملابس أوالأزياء، فالملابس عظيمة الشأن في التمييز بين الهويات، وقد تميز المجتمع الجزائري تاريخيا بملابسَ ذكرتِ الرواية منها: البرنوس- العمامة- الشاشية- الحايك .

1.4 البرنوس

استخدم الكاتب البرنوس كرمز للهوية المحلية، فحين قدَّم الصيدلي "ماحي" لابن أخيه "يونس" صورا عن أجداده أوضح له صورةً لرجال يرتدون البرنوس، قال الكاتب على لسان البطل : « مرَّ عمّي إلى صورةٍ ثانية تجمع ثلاثة رِجال ببرانس الأسْيَاد،

الوجوه وقورة بلحًى معتنى بها » (ياسمينة، صفحة 56) والكاتب يستخدم لفظة برنوس بالفرنسية ولا يترجمها إلى لفظة مقابلة (Yasmina, p. 40)« trois hommes en …bernous» والحقيقة أن البرنوس ليس رمزَ سيادةٍ فقط بل يُسْتَخْدَمُ كلباسٍ عادي يقي من البرد أيضا، فهو متعدد الدّلالة؛ له بعده الماضي وله وجوده الحاضر، غير أنّه يبقى حاملا رمزَ الأصالة، مرتبطا بزعماء الأمة الجزائرية، إنّه « يحمل البعد التّاريخي والحضاري والعقائدي والوطني والأيديولوجي، والثقافي والاجتماعي للهوية الوطنية، بكل أبعادها، فله أصول ثقافية وتاريخية تعكسُ ماضي الأجداد العريق والعتيد، فهو رمز للعروبة عرفه آباؤنا وأجدادنا قديما، ولا يزال يرتديه العديد من الأفراد اليوم »(جابري و مالكية، 2018، صفحة 151) إن البرنوس متوارث لدى سكان شمال إفريقيا وليس لباسا عربيا في أصله كما ذهب إلى ذلك صاحبا المقال.

2.4 القُفْطان

مقابل البرنوس بالنسبة للرجال ذكر الكاتب القفطان بالنسبة للنّساء فقد بين العم "ماحي" لابن أخيه صورة الجدة البطلة "لالة فاطمة" التي أطلق عليها الضابط الفرنسي لقب "جانْ دارك": «ينبغيعليكأنتعرفشيئامُهِمًّاياولدي . لمتسقطفجأةمنأعلىشجرةلتقعفي هاوية ...أتربهذهالسيّدةعلىالصورة؟ ...لقد أطلق عليها جنرال اسم "جان دارش" كانت سيّدة نبيلة، غنية وصاحبة نفوذ كبير. اسمها لالة فاطنة وكانت تملك أراضي بسعة بلد. تعج السهول بقطعان ماشيتها، ويأتي الأعيان من كل حدب وصوب لطلب الإعانة والمشورة.كان الضباط الفرنسيون أنفسهم يكنون لها احتراما مهيبا ... أنظر إليها جيّدا، يا ولدي. هذه السيّدة، هذا الوجه الأسطوري، إنها جدّتك. كانت جميلة، "لالة فاطنة"كانَت مُتَكِئَةً على وسائِدِها، الرَّقَبَة مستقيمة والرأس شامخ فوق قميص من القفطان المرصّع بالذهب والأحجار الكريمة، يبدو كما لوأنها تتسيّد على البشر وأحلامهم» (ياسمينة، صفحة 56) وباستثناء هذه الصورة التراثية لم تورد الرّواية أزياء عن مثل هذه الملابس، بقدر ما تحدثت عن الحايك كعلامة مميزة للمرأة المحلية.

3.4 العمامة

يستخدم الكاتب الشّاشية بالنّسبة لأطفال العرب والعمامة للرّجال بلا استثناء، والعمامة كانت هي اللباس المميز في السنين التني تتحدث عنها الرواية الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي. ففي وصف الأب يقول: «تمدّد أبي تحت صخرة، رافعار كبة إلى السماء، العمامة ساقطة على وجهه» (ياسمينة، صفحة 14)

« لفّ الشيخ عمامته حول رأسه وأسرع في مغادرة المكان » (ياسمينة، صفحة 42)
«ثمّ لمّ عمامته وأدارها على رأسه بشكل يثير الضحك»(ياسمينة، صفحة 67)
« غمغم الحانوتي وهو يسوي عمامته الساقطة على وجهه» (ياسمينة، صفحة 09)
فهذه جملٌ لشخصيات متعددة تشترك في هُوّية واحدة هي الهوية المحلية، التي تتميز بوضع العمامة على الرأس، وتعديلها بين الحين والآخر خاصة عند تغيير الحركة ويستخدم الكاتب لفظة turban على خلاف استخدام البرنس باللفظ نفسه، ويقابلها لدى الأطفال لبس الشاشية .

4.4 الحايك

ظل الحايك إلى وقت قريب حتى بعد استقلال البلاد مستعملا، أما سنوات ماقبل الثورة فكان الحايك أو ما يقابله في بعض المناطق كالملاءة مثلا، لِباسالمرأة الجزائرية حين خروجها من البيت،والحايك الذي يُشتق إسمه من فعل "حاك" في اللغة العربية، كان أيضا لباساً مُمَيّزاً للنّساء الاندلسيات،فابن الخطيب شبّه النساء الغرناطيات وهُنّ يرتدين الحايك الأبيض بـ "أسراب الحمام."(بن عمار، 2018) وخلافا لما ذهب إليه ابن عمار الذي يعتقد أن الحايك أتى من الأندلس إلى المغرب، فإن العكس هو الصحيح، فالحايك انتقل من المغرب إلى الأندلس (محمود عبد المحسن، صفحة 200) وقد وصف الطفل "يونس" أمه بأنها كانت ملفوفة في حايك «تقوقعَت أمي فيركن على حافة المركبة، منْدَسَةً في حايَكِها،لا تكاد تُميَّز وسطصُرَرها» (ياسمينة، صفحة 11). في حين تخلو الأحياء الأوربية من هذا اللباس التقليدي «الغريب هو أن النساء لا يرتدين الحايك. يتجوّلن بوجوه مكشوفة؛ تضع العجائز قبعات غريبة فوق الرؤوس؛ أما الفتيات فيَتَبَخْتَرْنَ في أجساد نصف عارية، الشعر المسترسل على الأكتاف معرض للريح، غير منزعجات من اختلاطهن بالرجال»(ياسمينة، صفحة 16)
وقد خرجت النّساء عقب الاستقلال بهذا اللباس يحتفلن بالحرية: «ترتجّ العمارات تحت زغاريد النساء، وهنّ يرتدين الحايك الأبيض مثل الرايات، وضربات البندير والطبل والدّربوكة الصاخبة والأغاني الوطنية» (ياسمينة، صفحة 265)

5.4 التقاليد والعادات

ما يميز الأهالي الإيمان المطلق بالخرافات، والاعتقاد بقراءة الكف وتفسير الأمور في ضوء تلك المعتقدات، وخير من يمثل ذلك في الرواية الأب "عيسى" والد "يونس" وكذا أمه، ثم سكان حي "جنان جاتو" من النساء اللائي كنَّ يلجأن إلى إحداهن كي تقرأ لهنَّ المستقبل، فعن اعتقاد "عيسى" بمثل هذه الأمور يقول "يونس" واصفا ما

دار بين أبيه والتاجر حيث طلب الأب عمالا للقيام بعملية الحصاد، قال التاجر ل"عيسى":

« اتفقنا.أنامسرور لأن ك أنقذت مَوْسِمَكَ.

ردّ أبي وهو يبتعد:

-بل أنقذتُ روحي.

-قبل هذا، عليك أوّلا أن تمْلِكَهَا.

ارتجف أبي عند عتبة الحانوت. بدا كما لو أنّه أدرك تلْميحا مسمُوما في أقوال البَقَّال. بعد أنْ حكّ مؤخرة رأسه، انزلق فوق العربة وعُدنا إلى الدّار .تأثرتْ حساسيتُه بشكل لافت .انطفأت نظْرتُه التي كانت مُشِعَةً هذا الصباح. يكون قد قرأ في ردّ الحانوتي نذيرَ شؤم .هكذا الحال مع أبي؛ يكفي أن تناقض قولَه كي تحضّره للأسوإ، أن تمدحَ حماسَه للعمل كي تعرّضه لعين الحسود.كنتُ متأكدا أنّه بدأ يحسّ بالندم في قرارة نفسه، لأنه اندفع للابتهاج بانتصاره بيْد أنّ لاشيء قد تحقّق بعْد» (ياسمينة، صفحة 09)

لقد نسي "عيسى" نفسه من الفرح والابتهاج فهيأ نفسه للأفراح بموعد الحصاد وإنقاذ أرضه من الرّهن لكنّ إشارة التاجر نغصت عليه فرحه، والغريب أنّ الكاتب يقرن بين مثل هذه الإشارات وما يتحقق بالفعل، فقد تم حرق المحصول عن آخره ووقع عيسى بيده على تسليم الأرض وهاجر بعائلته نحو وهران. منساقا وراء قدره . ويتكرر الأمر نفسه في جنان جاتو حين عزم على الدخول في شراكة مع أحد التجار وجمع مبلغا من المال يحقق له هذا الهدف، لكنّ الزوجة حذرته من الحديث عن هذا الأمر : « منْ فضلِك عيسى لا تجْهر بمشاريعك إذا أردْتَ إنْجازها، لم يُسْعِفْك الحظ سابِقًا أبدًا» (ياسمينة، صفحة 45) وقد تضاعفت مخاوِفها عندما علِمتْ أنَّ زوْجها تمكن من جمع المبْلغ المطلوب للدخول كشريك مع التاجر «وتفلتْ في حضنها كي تُبْعِد النّحْس وقالتْ – أرجوك، لا تُضِفْ شيئا . اترك الأمور تمر في الكِتْمان. العين الحاسِدة لا تغفر للثرثارين » (ياسمينة، صفحة 46) فكلا الأب والام مقتنعان بالتطير، بل إن الأب يكاد أنْ يكون قد اقتنع في نِهاية المطاف أنّه مهما فعل ومهما قال، « سيكون للنّحس دائِمًا الكلمة الأخيرة، وأن لا شيئ سيغيّر مجرى القدر، لا القسم على رأس جبل، ولا نذور أكثر النَّاسِ خشوعًا» (ياسمينة، صفحة 47).

وقريب من ذلك الخوف من الحسد حتى من أقرب الناس،

« قرفص عمّ يلي ضمني إلى صدره.

-عندك رجل ماشاء الله، عيسى.
فضل أبي عدم التعليق .من خلال حركات شفتيه، فهمت أنه يتلو آيات قرآنية لإبعاد عين الحسود» (ياسمينة، صفحة 17)

ومن المعلوم أن في كل الشعوب ولدى مختلف الفئات نجد هذه الظواهر إلا أن انتشارها في مجتمعاتنا يطغى بشكل غير معقول، بل يكاد يكون المحرك الأساسي لكل التصرفات ليس في الماضي فحسب بل وحتى في الوقت الراهن، وليس لدى النساء أو الشيوخ بل في كل أصناف المجتمع يستوي في ذلك المتعلمون والجهلة، وإذا ما حاولت المناقشة يتم اللجوء الى الدين وأنه يقول بوجود الحسد، ويتم تفسير كثير من الأحداث والظواهر باللجوء الى هذه الأسباب.

ولتفسير المجهول يتم اللجوء الى المنجمين.

باتول العرافة :

ذكرت الرواية "باتول العرافة" إحدى ساكنات حي "جنان جاتو" تصفها الرواية بأنها «نحيفة وخمرية مثل حبة قرنفلة، شابت وهي في الأربعين، وجهها مليء بالوُشوم، تنفجر ضاحكة قبل حتى أن تفتح بدرة فمها. زُوّجت قسْرا لشيخ في سن جدها، تدّعي أنّ لها قدرا تخارقة- تقرأ في خطوط اليد وتفسِّر الأحلام. تأتي النساء من الحي ومن أمكنة أخرى لاستشارتها. تقرأ لهن مستقبلهن مقابل بعض حبات بطاطا، قطعة نقدية أو علبة صابون .أما سكان الساحة فبالمجان...» (ياسمينة، صفحة 24) وحين افتراق السكان ستشتري "باتول" لنفسها منزلا وحماما «أما باتول العرّافة، فغادرت الحوش واشترت لنفسها بالأموال التي جمعتها من التعساء حماما ومنزلا في قرية الزنوج » (ياسمينة، صفحة 97)

وفي حي "جنان جاتو" كانت النساء تجتمع الى "باتول العرافة" لتقرأ مصير الغائبين، والمستقبل المجهول للحيارى،فعندما غاب الأب "عيسى" واختفى كانت "باتول العرافة" هي الملجأ، وقد بدت الأم مقتنعة تمامًا بالذي أشارت إليه العرافة، فقالتْ لابنها "يونس": «أيّها المجنون، كيف تجْرؤ على القول مثل هذا الكلام؟ باتول العرافة أكدتْ لي مِرارً أنّها رأتْه في خطوط يدي، وفي تموجات الماء، أبوك بخير، إنّه حيّ يُرْزق» (ياسمينة، صفحة 98)

كما قرأت "باتول" في كف حدة التي اختفى زوجها، وقد رأت رؤيا لا تُسْعِدها «انحنت باتول على يد جارتها، مرّت ظفرها مرارا على الخطوط المتقاطعة.

-أرى كثيرا من الرجال حولك ياحدّة. ولكن قليلا من الفرح. السعادة ليست ديدنك. أرى انفراجات صغيرة، يلتهمها تدحرج السنوات بسرعة .مناطق ظل وشجن، ومع ذلك فأنت صامدة لا تستسلمين.

-كثير من الرجال؟ هل أصير أرملة أو مطلقة مرات عديدة؟

-الرؤية مُضبّبة. يوجد كثير من الناس حولك، وكثير من الضجيج أيضا. يشبه حلما، ولكنه ليس كذلك.إنه... إنه أمر غريب. ربّما أنا أهذي فقط ...أشعر بالتّعب يسْري في جسدي اليوم. أعذريني... » (ياسمينة، صفحة 33)

وبالفعل فقد كان مصير "حدّة" التدحرج إلى ماخور المدينة أين رآها "يونس" هناك، فتذّكر ما قالتْه العرافة، ومثل هذه الأمور التطير والقدر والشعوذة كانتْ في الرواية حكْرًا على العرب والأحياء العربية، أما الأوربيون فهم يعيشون الواقع، ويستمتعون بالحياة، بينما يلجا الأهالي إلى الحلول الغيبية وإلى الحلول الأسطورية الجاهزة.

ويربط الدكتور أحمد مرسي أستاذ الأدب الشعبي بجامعة القاهرة بين شيوع الخرافة والتفكير الخرافي، وظاهرة القهر السياسي والاجتماعي، فالإنسان المقهور يبحث عن حل لمشكلاته، فالقهر يؤدي إلى الشعور بالعجز، وعندما يعجز الإنسان عن تفسير ما يحدث له فإنه يلجأ إلى الخرافة.(دسوقي، 2019)

6.4 الهوية الأجنبية

نعني بالهوية الأجنبية مجموع القوى المهيمنة والحاكمة في الجزائر، والتي تستمد سلطتها المباشرة من فرنسا، فهناك الحكم العسكري للبلاد، وهناك المعمرون وهم من أجناس مختلفة ففضلا عن الفرنسيين يوجد اليهود والاسبان وغيرهم، والهوية الأجنبية تشمل مظاهر الحياة المختلفة للمستوطنين، وهي هوية أجنبية من وجهة نظر محلية، تتمثل ملامح هذه الهوية في أساليب الحياة المختلفة من مأكل وملبس، وهي الوجه الآخر للهوية المحلية، وأهم ملامح الهوية الأجنبية نذكر:

1.6 وصف المساكن

يصف الكاتب مظاهر الحياة الحضرية في المنازل كما في الشوارع، يقول : « تستريح العائلات بداخل الشرفات، حول طاولاتٍ بيضاءَ مزينة بقنينات وكؤوس عصير البرتقال الطويلة، فيما كان أطفالٌ بخدود موّردة وشعر مذهّب اللون يقفزون في الحدائق؛كانت ضحكاتهم الرنانة تنبثق وسط أوراق النباتات مثل فوارة ماء.تنبعث من هذه الأمكنة المحظوظة سكينة ورفاهية لم أتصور أنها ممكنة الوجود» (ياسمينة، صفحة 16)كما يصف منزل السيدة "كازيناف" المرأة التي مارس معها يونس الجنس

غير الشرعي للمرة الأولى: «يقع منزل كازيناف فوق مرتفع، على بعد ثلاثمائة مترا من القرية. منزل كبير ومصبوغ بالأبيض، يشرف على السهل الممتد جنوبا. على اليسار،كان الإسطبل فارغا، ومخربا قليلا، ولكن المنزل حافظ على أناقته كاملة .درب صغير يؤدي إليه، تحيطه أشجار الدوم. ينتصب السِّياج الحديدي المطرّق على جدار صغير من الحجر مقطع بعناية، يحاول كرْم مُعتَر شأن يلفه .على الواجهة المقوّسة فوق عمود ينم بلطين يمكننا أن نقر أحرف C منقوشا على الصخرة، وتحته تاريخ 1912، سنة إنهاء أشغال البناء.» (ياسمينة، صفحة 121)

تتصف بيوت المعمرين باحتلالها مرتفعا من الأرض لتطل على مناظر جميلة، وتتربع على مساحة واسعة خاصة المنازل المتواجدة ببلدة صغيرة مثل "ريو صالادو" القرية الاستعمارية الفلاحية بامتياز.

وكثيرا ماتتحدث الرواية عن شرب الأنيزات anisetteفي الشرفات وأمام البيوت المشروب الكحولي الذي اشتهرت به الجزائر وقت استيطان الأقدام السوداء بها وهو ما تم إعلانه من شركة Martiniquaise، ورد في الرواية :

«فيري وصالادو، يحب الناس الإفاضة في الحَكي وهميتنا ولون كؤوس الأنيزات» (ياسمينة، صفحة 129)

« يتلذّذ ونبشرا بالأنيزات عند عتبات أبوابهم» (ياسمينة، صفحة 179)

« واصل السكان الجلوس في المقاهي يثرثرون حول كؤوس الأنيزات» (ياسمينة، صفحة 211)

« يتبادلونأطرافالحديثحولكؤوسالأنيزات» (ياسمينة، صفحة 16)

« ينتعش الجوّ ويخرج الناس كراسيهم إلى الأرصفة ويقضون ساعات طويلة في تبادل أطراف الحديث حول كؤوسالأنيزات» (ياسمينة، صفحة 64)

2.6 الملابس

يصف البطل "يونس" الرجال ببذلاتهم الأنيقة، كما يصف النساء خاصة بملابسهن الجميلة وبقبعات مزدانة، وبالنظارات الشمسية فضلا عن العطور، يستمتعن بالبحر، وبالحفلات الراقصة، وإقامة المآدب وحضور المناسبات، والقيام بالأعمال وتسيير المشاريع، الأمر الذي لا يورده بتاتا مع نساء العرب. يقول واصفا أم صديقه "فابريس" وهي تشرف على حفل صدور عمل أدبي لابنها: «وجدنا أمّه في المكتبة، رائعة في بذلة نسائية، عنابية اللون. تحمل قبعة مزيّنة بالريش، زادتها أبّهة» (ياسمينة، صفحة 136)

كما وصف "إيميلي": «كانت إيميلي رائعة في فستانها الغجري البسيط شعرها منطلق إلى الوراء، الكتفان عاريان، فكانت لذيذة الالتهام.خجلت من فكرتي وطردْتُها من رأسي» (ياسمينة، صفحة 171)

3.6 الحفلات

كانت "ريو صالادو" كما وصفها الكاتب قرية استعمارية رائعة، استطاعت رغم صغرها منافسة وهران في إقامة الحفلات، والولائم «كانت قرية استعمارية رائعة، بأزقتها المُخضَوضرة والمنازل الفاخرة... تُغني فيها أشهر الفرق الموسيقية»(ياسمينة، صفحة 85) ولكون "ريو صالادو" هي المسرح المهم للأحداث الروائية ولكون هذه المنطقة ملأى بالمعمرين الذين يمتلكون الأراضي الخصبة بكرومها، فقد اعتادوا على تنظيم حفلات راقصة بمناسبة جني العنب «كان موسم قطف العنب رائعا، والحفلة الراقصة التي ختمت الموسم عظيمة» (ياسمينة، صفحة 129) ولم تكن هذه الحفلات هي التي تقام في القرية فحسب، بل صارت الحفلات والولائم مظهرا مميزا للقرية خاصة مع وجود الثراء الفاحش في المنطقة والرغبة في إثارة الانتباه، ومن العائلات التي كان له دور على مسرح الأحداث الروائية عائلة "روسيليو" وهي عائلة ارستقراطية

«احتفلت ريوصالادو بموسم قطف العنب المقبل كما ينبغي.في الحفلة الراقصة، استقدموا ثلاث فرق موسيقية ضربة واحدة، ورقصت"ريو إلى حدّ الإعياء. انتهز الجدّ "روسيليو"مناسبة الموسم الجميل ليقيم حفل زفاف مع مغنية من نمّور تصغره بأربعين سنة.احتج ورثته في البداية، ثمّ أدركوا أنّ ثروة جدّهم هائلة، يصعب حصرها، فاستمعوا بالوليمة كالغيلان وطلبوا المزيد» (ياسمينة، صفحة 211)

وبطبيعة الحال فإنّ الحديث عن الحفلات لا يخو من الحديث عن الأكل والشراب، وللأكل دلالة على الهوية،والأكل فعل بيولوجي اجتماعي، يرتبط بالإرث الثقافي للمجتمعات، ويُعد عنصرا كباقي العناصر الثقافية: الموسيقى،الرقص، اللباس،النمط المعماري...وغيرها من العناصر التي تعكس الهوية الثقافية لكل مجتمع إنساني.إنه يُمثل هويات الشعوب، فعندما نسمع اسم غذاء أو طبق، تتجه أذهاننا إلى مجتمع معين (بريجة، 2015-2016، صفحة 143) ولهذا نجد "يونس" عندما سافر إلى "مارسيليا" ذكر أن زوجة "مشال" قد أعدت لهم طبق البويابيس قال: «طهت لنا زوجة مِشال..، طبق البويابيسbouillabaisse الشهي، بأنواع لا تحصى من السمك الذائب في الفم كما الجبن» (ياسمينة، صفحة 284)

4.6 الهجرة والحنين

بقدر ماكان الأهالي يعملون على رحيل الاستعمار بقدر ما كان الفرنسيون يتشبثون بالبقاء في الجزائر، خاصة وأن هؤلاء قد وُلِدوا في هذه الأرض وتربوا فيها، كما تربى أباؤهم، وقد تعاقبت أجيال على وجودهم فيها، وفي ظروف ميسرة، الأمر الذي يصعب معه الاقتناع بالخروج من البلاد، وقد اغتنم السكان في "ريو صالادو" قدوم الجنرال ديقول إلى عين تموشنت، وذهبوا لتبليغ مطالبهم بضرورة إبقاء الوضع على ماهو عليه كان ذلك في 09 ديسمبر 1960، لكن أمل السكان المعمرين قد خاب يقول الكاتب: «رجعت السيارات من عين تموشَنت . ذهبت صباحا في ضجيج صاخب، شاهرة الأعلام الثلاثية اللون. عادت من التجمع كالخروج من الكنيسة، في صمت موكب جنائزي، الأعلام منكّسة والرؤوس مطأطأة .خيّم على القرية صمت ثقيل. تحمل الوجوه حداد آمل محكوم عليه منذ زمان طويل وقدحاولوا إحياءه بنفثات دخان. ستكون الجزائر جزائرية» (ياسمينة، صفحة 259)

وعقب استقلال الجزائر كان على المعمرين الرحيل نحو فرنسا، صحيح من الجانب القانوني تم منح السكان من ذوي أصول أوربية الحق في البقاء في الجزائر كما تنص على ذلك الاتفاقيات :

«أكد رضا مالك أن المفاوضات بين الوفدين الجزائري والفرنسي، نصت على حقوق وواجبات هذه الفئة من الفرنسيين، وتأتي في مقدمتها تمتعهم بكافة حقوق المواطنة لمدة ثلاث سنوات، على أن يختاروا خلال هذه المدة، حمل الجنسية الجزائرية أو الفرنسية» (لشروق أونلاين، 2012)

وخِلافا للاعتقاد السائد أنّ كل المعمرين هاجروا عقب الاستقلال، تشير بعض التقارير، إلى أنّ هناك من بقي في البلاد ويقدر ب 200 ألف ممن بقي متعلقا بمسقط رأسه خلافا لما يذهب إليه "بيار دوم" صاحب كتاب "لا حقيبة ولا نعش، الاقدام السود الذين ظلوا في الجزائر"، الذي يذهب إلى أنه لم يكن لدى هؤلاء من خيار فإما الحقيبة (الرحيل) أوالنعش (الموت)، والحقيقة أنّ ذلك قد يكون مبالغ فيه (فرانس 24، 2012) . وصحيح الحماس الثوري للسكان لم يكن يوفر لهؤلاء جو البقاء في الجزائر، فاضطرت الأغلبية إلى الهجرة التي كانت أمرا لامفر منه، صوّره الكاتب في صورة مأساة. هذه صورة لشيخ يتساءل أين وكيف سيموت؟: «فيري وصالادو، بقيت النوافذ والأبواب مشرعة على منازل شاغرة. تكدّست الحقائب والصرر على الأرصفة . غادر كثير من السكان بيوتهم باتجاه الهجرة. ولا يعرف الباقون ماذا يفعلون

بأيامهم ولا إلى من يسلّمون أرواحهم. شيخ ممزق في حالة يرثى لها عند عتبة منزله، وقد شلّ جسده داء المفاصل .يحاول شاب مساعدته على المشي فيما كانت العائلة قلقة داخل شاحنة فورغون غاصةكعلبة سردين .قال الشيخ بصوت مبحوح" : كان عليهم أن ينتظروا موتي ...أين سأموت الآن؟ "في الشارع الرئيسي» (ياسمينة، صفحة 262)

وهنا نجد المفارقة ففي الوقت الذي تحتفل فيه البلاد بفرحة النصر، نجد المعمرين يتركون بيوتهم خاوية، ويتدافعون إلى الميناء خشية على أرواحهم من القتل يحملون ما استطاعوا حمله، في هرج وصراخ وضجيج، بعضهم باع مايملك بأبخس الأثمان وبعضهم حرق ممتلكاته كما فعل "أندري" بالحانة التي طالما عمل بفخر على بنائها وتأثيثها. ليأتي اليوم الذي يهاجر فيه القوم نحو فرنسا وليتوزعوا على المدن والبلدان. وعبثا يحاولون نسيان بلدهم الأصلي الجزائر ووهران و"ريو صالادو" مثلهم في ذلك مثل الحركَى الذين كان عليهم الرحيل مع من تضامنوا.

وقد كان لذهاب يونس إلى فرنسا بعد موت "إيميلي" فرصة للالتقاء الأصدقاء وقد صاروا مثله شيوخا ولكن الحنين بقي في النفوس، يرد "أندري" على "يونس" الذي بدوره فقد أصدقاء الطفولة:

«إنفقد الأصدقاء ليس مثل فقد البلد .تتمزّق أحشائي كلما فكرت في الأمر .الدليل أننا هنا لا نقول" نوستالجيا"بل نقول" نُوسْتَالجيريا"، نسبة إلى الجزائر» (ياسمينة، صفحة 286)

وفي معرض حديث هؤلاء عن الجزائر يتأسفون لما آلت إليه أوضاع البلد من اقتتال أبناء البلد الواحد فيها، ويتأسفون مع بعض السخرية من تحطيم زراعة الكروم فيها، هذا حوار بين "يونس" و"أندري"

« صحيحأنريولمتعدتنتجخمرا؟

-صحيح.

-يا للقذارة ! خسارة حقيقية ... أقسم لك أنني لازلتُ إلى يومنا هذا أشعر على طرف لساني البصمة الساحرة لذلك النبيذ الرقراق لبلدنا هناك، ماركة أليكانت دالمالح التي تغرينا على التعتعة بالسكر حتى نرى الديك حمارا.

-لقدخرّبت الثورة الزراعية جميع كروم المنطقة.

قال غوستاف مستنكرا:

-ماذا غرسوا في مكانها؟ البطاطا؟» (ياسمينة، صفحة 284)

ويبدو من خلال الحوار متابعة هؤلاء المعمرين السابقين للوضع في الجزائر والحنين إلى زيارتها والتأسف على تغيُّر الحياة التي عهدوها فيها، ويبدو "يونس" منسجما مع مشاعرهم ومع طروحاتهم، فينقل لهم بمرارة أن الضابط "جلول" المتقاعد من الجيش تم اغتياله وعلى يد من ؟ على يد واحد من أحفاده

«لقد أخذ تقاعده من الجيش برتبة كلونيل في بداية سنوات التسعين .لم يسكن بري وأبدا .كانت له فيلّة في وهران، أمل أن يقضي بها سنوات تقاعده .ولكن الإرهاب الإسلاموي وقع علينا كالصاعقة وتمّ اغتيال جلول قر بمنزله، بخرطوشة بندقية صيد، وهو جالس عند باب بيته يشمّ هواء المساء الطري.

قفز آندري، وقد طارت السكرة من رأسه.

-جلولمات؟

-نعم.

-قتله إرهابي؟

-نعم، أمير من الجماعات الإسلامية المسحلة .واسمع جيدا، دادي: حفيده الخاص.

-قاتل جلول هو حفيده؟

-لقد سمعت جيدا.

-إلهي ! ما هذا القدر الحزين الساخر»(ياسمينة، صفحة 285)

إن الحنين إلى الأرض التي وِلِد فيها الإنسان أمر إنساني، ولعله من الخطأ أن نضع كل الأوربيين في كفة واحدة ونحكم عليهم بالإجرام، وفي الحقيقة فإن الصوت الروائي صوت إنساني، مكن هؤلاء من التعبير عن الذات . يتيح الكاتب الفرصة ل"غوستاف" وهو يوجه خطابه ل"يونس" فيقول الكاتب:

« تدخّلغوستافوهوعلىقابقوسينأوأدنىمنالسقوطفيإغماءكحولي:

- لوغادرنا البلد بمحض إرادتنا، لهان الأمر . ولكننا أجبرنا على الهجرة، أجبرنا على ترك ديارنا، وممتلكاتنا، والذهاب في استعجال كارثي، حقائبنا معبّأة بالأشباح والأحزان .جرّدونا من كل شيء، بما في ذلك أرواحنا. لم يتركوالنا شيئا، ولا حتى العيون لنبكي . هذا ظلم، جوناس .ليس جميع الناس كانوا معمرين، وكانت لهم سوط يتجبرون بها؛ نحن أيضا، كان لنا فقراؤنا، وأحياؤنا الفقيرة، ومهمشونا، وناسنا أصحاب الإرادات الحسنة، وحِرَفِيُّون االأصغر من حرفييكم، ونقوم غالبا بنفس الأدعية.. لماذا وضعونا جميعا في قفص واحدا؟

لماذا حملونا أوزار كمشة من الإقطاعيين؟» (ياسمينة، صفحة 287) وعن هؤلاء السكان يقول أزراج عمر

« وفي الحقيقة فإن مؤرخا فرنسيا شهيرا بحجم "فرنان بروديل" قد بيَّن في كتابه البحر المتوسط في عهد فيليب الثاني« أن أفرادا آخرين قد استوطنوا الجزائر بصفة نهائية جراء تعرضهم للأسر من طرف القراصنة الجزائريين والعثمانيين وهم من البريطانيين وقدر أعدادهم بالآلاف. وتفيد الحقائق التاريخية أيضا أن المعمّرين الأجانب بالجزائر في العهد الفرنسي لم ينخرطوا كلهم ضمن الجيش الفرنسي ولم يرتكبوا كلهم المجازر، ولم يستولوا كلهم على أراضي الجزائريين بالقوة وفي إطار الإجراءات الاستعمارية التعسفية، بل إن هناك منهم من وقف إلى جانب حركة التحرر الوطني» (أزراج، 2018)

5.6 علاقة الهوية الأجنبية بالمحلية

تختلف معاملة المعمرين للأهالي باختلاف الأشخاص والعائلات، فتارة نجدها معاملة إنسانية خالية من الحقد والكراهية، بل نجدها متداخلة أحيانا مع الهوية المحلية، وهذا ما نلمسه لدى "جرمين" زوجة "ماحيالصيدلي" وموقفها من "يونس" الذي استقبلته واحتضنته وتبنته، وكذلك الفتاة "لوسات" التي أحسنت زمالة "يونس" كما نجد "إيميلي" التي شغفت ب"يونس"، وكانت مستعدة للتضحية بكل شيئ من أجله، لكنه هو من رفض الارتباط بها خلافا لعمه الذي تزوج ب"جرمين" وهي فرنسية، وكأني ب"يونس" يرفض في أعماقه أن يكرر تجربة العم، وأن يصحح هذا التداخل بين الهويتين، ولكنّه كان يفعل ذلك دون تبرير عقلاني.

وبالنسبة للشخصيات النسوية التي تمثل العنصرية في الرواية نجد "إيزابيل" الفتاة التي كانت تدرس مع "يونس" والتي ظنته فرنسيا واسمه "جوناس" فتعلقت به على هذا الأساس، وصارت تقدمه بفخر لمعارفهاإلى أن بلغها أنه "يونس" وأنه عربي فصدّته صدا عنيفا واعتبرته كذابا. وكذا الشأن بالنسبة للسيدة "كازيناف" التي رغم إقامتها علاقة غير شرعية مع "يونس" إلا أنها رفضت رفضا مطلقا أن ترتبط ابنتها به بحجة أن ذلك يدخل في زنا المحارم طالما أن بينها وبين "يونس" علاقة سابقة. لقد قضت منه وطرها ثم تنكرتْ له، وفي الحقيقة فإن علاقتها به كان مجرد نزوة عابرة. «لقد فشل(ياسمينة خضرا)في خلق جو التسامح والتواصل الإيجابي بين(جوناس)،(وإيزابيل)،باعتبارالخلفية الثقافية المختلفة بينهما(الثقافة الإسلامية، والثقافة المسيحية)، وظل الآخر يُكن العداء للأنا، فبقي هاجس الهوّيّة والانتماء، أهم

أسبابالصراع بين الطرفين، هذا الصراع بين الشرق، والغرب بقي إلى يومنا الحالي »(حسني و قيدوم، تمثلات الهوية في رواية فضل الليل على النهار، 2021، صفحة 30)

وهناك صور أخرى تمثل الطابع العنصري، وهو الطابع العام عادة لدى المعمرين، الذين تصفهم الرواية في هيئة اللاهي المستمتع بالحياة، وتختلف معاملة بعضهم بعضا بمعاملتهم للعرب، وقد أحس "يونس" بذلك منذ تواجده بالمدرسة، يصف زميله "أندري" بأنّه كان « نوْعًا من الطّاغية العادي، مُسْتبِدًا مع عُماله، ولكنّه لطيف مع أصدقائه، طفل مدلل»(ياسمينة، صفحة 101)

وأندري لا يتردد في إهانة العرب ووصفهم بأبشع النعوت، حتى في وجود "يونس" فهو يعتبره استثناء، وعلى هذا فقد كانت معاملته للخادم "جلول" في منهى القسوة تصل حد الإهانة والعقاب البدني، لقد تعمد مرة إرساله عدة مرات إلى المدينة في وهج الشمس عقابا له، وحين تدخل "جوزي" قال له "أندري"«وقفجوزي، مستعد الإرجاع جلول. أمسكه آندري من المعصم وأجبره على الجلوس.

-لا تتدخل، جوزي .أنت لا تملك خدما ولا تعرف طبيعتهم ...إن العرب مثل الأخطبوط؛ يجب أن تضربه كي يتمدّد. انتَبَه أنني كنت عربيا وسطهم، فاستدرك-: أو على الأقل ...بعض العرب. ثمّ قفز على قدميه وركض يرمي نفسه في البحر، مدركا كراهية أقواله العصية»(ياسمينة، صفحة 102)، كما يصف أب "أندري" المدعو"جيم جيمناز صوزا" بمثل ذلك السلوك بل أكثر . إنّه نموذج الإقطاعي المتغطرس، يتحث عنه "يونس" وقد عاد من نزهته على ظهر حصان، يقول "يونس": «وجدته يقدّم مطيته إلى سائس خيوله. نظر إليّ لحظة، حائرا من زيارتي، ثمّ اتجه نحوي بعد أن أعطى ضربة على ردف الحصان .صاح من بعيد،كما لو أنه أراد اختصار الزيارة:

-ما هي الحاجة التي أتت بك عندي، جوناس؟ أنت لا تشرب الخمر، وموسم قطف العنب لا يزال بعيدا.

أسرع خادم ليخلّصه من خوذته الكولونيالية ومن سوطه؛ صرفه جيمصوزا بحركة ازدراء دون أن يتركله فرصة الاقترابمنه. » (ياسمينة، صفحة 216) فبمثل هذه العنجهية كان المعمرون يتعاملون مع السكان الأصليين في الأحوال العادية أمّا في الحالات المتوترة، فقد كانوا يمنعونهم أصلا من النزول إلى وسط البلد أو التنزه، إذْ يتوجب عليهم قضاء اليوم كامِلًا في الحقول.

لقد تعرض جلول للضرب على يد أندري، لا لشيئ إلا لأن السيد غاضب على العرب، وقد أكد جلول ليونس أن أندري سوف لن يستغني عن خدمات جلول فقال: «سوف لن يجد كلبا أفضل مني في السوق» (ياسمينة، صفحة 133) وإذ اعتبر يونس أن هذه قسوة في حق نفسهأوضح جلول ليونس البؤس الذي يعيش فيه فقال:« حينما تكون أنت العائل الوحيد لعائلة تتشكل من أمّ نصف مجنونة وأب بترت ذراعاه، ستة إخوة وأخوات، جدّة مريضة، عمتان مطلقتان بذريتهما، وعمّ يعذبك طوال النهار، تنتقي بشريتك ...بين الكلب والذئب، تختار البهيمة الضعيفة أن يكون لهاسيّد»(ياسمينة، صفحة 133)

إنّ جلول بهذه الوضعية، وفي هذه الظروف سيتحول ذات يوم إلى بطل ثوري، ستنغلق أنّاه عن الآخر، وتتمركز على الذات لتطالب الآخر بالرحيل عن البلد في أحسن الأحوال.

7.4 الهوية المزدوجة

نعني بها فئة من المجتمع انتقالية، هي ذات أصول محلية ولكنها اندمجت في ثقافة الآخر، وتعايشت معه، وهذه الفئة قسمان قسم بقي محافظا على أصوله مع الانفتاح على الآخر، وقسم قطع الصلة مع أصوله وحاول الاندماج كلية في المجتمع الأوربي فصار مرفوضا من الهوية المحلية مما اضظر ه إلى الرحيل مع الأوروبيين، ولعل خير من يمثل الهوية المزدوجة بطل الرواية يونس/ جوناس، وعمه ماحي الصيدلي، ومن القسم الثاني نجد كريمو الذي هاجر إلى مارسيليا.

1.7 الصيدلي ماحي

ماحي هو الاسم المختصر للصيدلي محي الدين عم البطل يونس وزج الفرنسية جرمان، ومحي الدين هو اللقب العائلي للأسرة، ولا تذكر الرواية اسم هذالبطل كما لا تذكر لقب زوجته الأصلي خلافا لبطل الرواية محي الدي يونس. وبالرغم من انتماء ماحي لأسْرَةٍ وطنية، فإنّ محي الدين اندمج مع الوسط الفرنسي، فتمكنّ من دراسة الصيدلة، وتزوج من الفرنسية جرمان وامتلك منزلا بمدينة وهران وصيدلية. وقد حكى لابن أخيه حكايته وكيف كان في صغره مريضًا واستعصى مرضه عن الشفاء ونصح أحد الأصدقاء الأب بنقل الطفل إلى الأخوات المسيحيات، وقد كان الأب رافضا للفكرة في البداية، لكنه اضطر للخضوع لنقل الفتى عندهن، فكان ذلك مدعاة للشفاء وتعلم الطفل وتحصل على البكالوريا وساعده والده في دفع مصاريف الدراسة، وفي كلية الكيمياء تعرف على جرمان التي كانت تدرس بيولوجيا فتزوج وسكن المدينة

واشترى المنزل والصيدلية، ولم يزره والده ولا مرة في حياته، مع أنّه سمح له بكل ذلك (ياسمينة، الصفحات 56-57) قال العم للفتى « ربّما تساءلتَ لماذا أحْكي لك كلَّ هذا ياولدي.. لكي تعرف جذورك جيّدا، بداخِل عروقك تجري لالا فاطنة»(ياسمينة، صفحة 57) وهو هنا يشير إلى البطلة الجزائرية لالا فاطمة نسومر .وهي لالاّ فاطمة محمد بن عيسى المعروفة بفاطمة نسومر مولودة عام 1830 في عين الحمام (منطقة القبائل)، اشتهرت بلقب فاطمة نسومر نسبة إلى قرية "نسومر" التي أقامت فيها مع أخيها الأكبر سي الطيب بعد وفاة والدهما، وانخرطت في مقاومة الفرنسيين مشاركة مع المقاوم بوبغلة (محمد بن عبد الله). كبدت فاطمة الفرنسيين خسائر كبيرة، فقاوموها بشراسة، واستطاعوا أسرها. كانت وفاتها عام1863 (الجزيرة، 2014)

إذن وكأنّ الظروف هي التي جعلت ماحي يكون في هذه الوضعية المُزْدوجة التي تختلف عن السُّكان المحليين، وعن الأوربيين . يصف يوسف عمه وقد رآه للمرة الأولى فقال عنه «كان (رجل) رجلا طويل القامة ونحيفً، مُتحزمًا في بدلة من ثلاث قطع وطربوش أحمر على رأسه الأشْقر، له عينان زرقاوان ووجه رقيق الخطوط تتوسطه حاشية شارب زادتْ من إضعاف الشِّق الذي يخط فمه»(ياسمينة، صفحة17)

إنّ ماحي لمْ ينسلخ من أصالته ولم يتنكر لأصولهبالرغم من أن هيأته الفزيولوجية ومستواه التعليمي، ومركزه الاجتماعي ووضعه العائلي يسمح له بذلك. ولكنه رغم محافظته تلك فقد كان في نظر عائلته الأصلية خارجا عما يجب أن يكون عليه،،فأبوه بالرغم من قبوله بالأمر الواقع إلا أنّه لم يكن راضيا عما فعله الابن بدليل عدم زيارته له ولا مرة، أما أخوه عيسأب يونس، فقد كان يراه منسلِخًا تماما، قال ماحي لزوجته «يكرهني. بالنسبة إليْه، لقد بِعْتُ روحي للشيْطان، أنْكرتُ أهْلي، تزوَّجْتُ بكافرة، تخليتُ عن أرضِنا مُقابِل دارٍ في المدينة، استبدلتُ غنْدورتي ببدلةٍ أوربيّة، وحتى وإنْ وضعتُ الطّرْبوش على رأْسي،فهو يلومني على رمْي عمامتي لحشائش القراص، بيني وبينه لمْ يعُد التيار يمر أبدًا»(ياسمينة، صفحة 59)

العلاقة متوترة بين ماحي وأخيه عيسى، لكن هذا الأخير هو الذي لا يتفهم أخاه، وتلك هي النظرة العامة للأهالي لكل من انفتح على المستعمرين،لأنهم يرون كيف أن كثيرًا منهم قد ذابوا في المجتمع الأوربي وصاروا خدمة مخلصين له الأمر الذي يهدد الكيان المحلي. غير أن ماحي بأصالته وثقافته ماكان له أن يعبر كلية إلى الجهة الأخرى، بل على العكس من ذلك، لقد أخبر ابن أخيه ومتبنيه عن تاريخ الأسْرة المجيدمن النساء والرجال، وقد كان بيته مأْوًى لرجال الحركة الوطنية، كان ماحي شغوفا بمصالي

الحاج، وقد سمح للفتى مرة بالدخول على الضيوف بل وقدمه لهم بفخر، يصف يونس مصالي الحاج بقوله:« حينما يفتح فمه يتشبث أصدقاؤه بشفتيه ويبتلعون كلامه بمُتْعةٍ لا حدّلها، يتعلق الأمر بضيْف شرف، شخصية مهيبة، يقف عمي أمامه بإعجاب كبير . لم أتمكنْ من وضع اسم على ذلك الضيف المبجل إلا بعد مرور وقت، وأنا أقرأ مجلة سياسية، مصالي الحاج، أحد الوجوه الرائدة للحركة الوطنية الجزائرية»(ياسمينة، صفحة 70) و مصالي الحاج الذي يُلقب بـ "أبو الأمة" ولد بمدينة تلمسانعام 1898، زعيم وطني جزائريكان واحد من المطالبين بالاستقلال عن فرنسا منذ العشرينات من القرن الماضي، جُند في الحرب العالمية الأولىثم استقر في فرنساحيث أسس حزب نجم شمال إفريقياالذي تحول إلى حزب الشعب الجزائري، ثم إلى حركة انتصار الحريات الديمقراطيةوأخيرا حزب الحركة الوطنية الجزائرية . سجن مرات عديدة في فرنسا والجزائر، كما نفي إلى برازافيلعام 1945 توفي بالعاصمة الفرنسيةباريسفي 1974، ودفن بمسقط رأسه. (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، 2021)

في بيت ماحي المحب بمصالي الحاج، سيتربى يونس،فلقد كان عمه وطنيا، مؤمنا بشرعية القضية، الأمر الذي أدى به إلى الاعتقال لمدة أسبوع، وهو السبب الذي جعله يبيع ملكه في وهران وينتقل إلى ريو صالادو البلدة الواقعة على بعد ستين كيلومترا من وهران. لقد ضايقته السلطة الاستعمارية وأرادته أن يمارس دور العمالة والوشاية بزملائه الأمر الذي ما كان له أن يقبله على الإطلاق.

« بعد ان استرجع قسطا من من صفاء ذِهْنه، عبّر عمي لجرمان عن مشروعه، لم يكن ممكنا لنا أن نبقى في وهران... اعترف لنا بلهجة حزينة:

- تصوروا.. تريد الشُّرْطة أنْ تُؤلبني ضد أهْلي . كيف اقتنعوا أنَّ بإِمْكانهم أنْ يجعلوا منّي واشِيًّا؟ هل لديّ سحنة خائن يا جرمان؟»(ياسمينة، صفحة 80)

وبذلك شرح لزوجته مبررات التخلي عن وهران المدينة التي وُلِدتْ فيها، والنتقال الى القرية الكولونيالية ريو صالادو.

إن العم ماحي أنموذج للرجل المزدوج المُشبع بالروح الوطنية، وفي الوت ذاته البعيد عن العنف، إنه المتطلع على الثقافة الغربية كما العربية، فهو يطالع باللغتين: « هوسه الكبير للكتب . يسْتهلِكها بلا توقف، بشراهة لا حد لها، فلا ينتهي من رواية إلا ليفتح كتاب فِكْر يقرأ في اللغتين» (ياسمينة، صفحة 137) هو يقرأ الأخبار والروايات، ويسمع للإذاعة، ويهتم بالقضايا السياسية، لكنّ حادثة اعتقاله هزّته هزا عنيفًا فلم يبق على ماهو عليه من قبل، رغم قصر المدة التي قضاها معتَقَلا «لم يدم ارتياح جرمان

إلا لحظة اللقاء .أدركَت مباشرة أنهم لم يُرجعوا له ازوجها كاملا .كان عمّي بليد الذهن تقريبا .لا يفهم في الحين مايق الله، ويقفز إلى السماء حينماتطلبمنهجرمانإنْكانيحتاجإلشيء .في الليل،أسمعه يذرع الغرفة ويتلفظ بكلام مبهم.أحيانا، وأنا في الحديقة، حينما أرفع بصري باتجاه النافذة بالطابق الأول، أدركظ له خلف الستار.كان عمّي يراقب الزقاق بلا هوادةكما لو أنه يتوقع رؤية مجيء عفاريت الجحيم إلى منزله» (ياسمينة، صفحة79)

ولم يكن ماحي ليرى في الزواج بفرنسية أمرا محظورا، ولذلك فقد كان يشجع ابن أخيه على الزواج من المرأة التي تحبه، كان يرى ذلك الشرط الأوحد للسعادة، لكن يونس لم يفعل، وكأني به كان يتجنب تكرار عمل عمه لا لسبب عقدي بقدر ماهو نفسي أو فلنقل وطني، وربما دونما شعور، يقول الكاتب مشيرًا إلى ماتمليه الشريعة في الزواج بالأجنبية « في الشريعة تُجْبر المرأة غير المُسْلِمة على إعلان إسْلامِهاقبل أنْ تتزوج مُسْلِمًا. لمْ ييكن عمي بهذا الرّأي، لا يهمه أنْ تكون زوجتُه مسيحية أمْ وثنية، يقول إنَّ شخْصين عندما يُحبان بعضُهما بعضا يتحرران من الضغوطات والمحرّمات» (ياسمينة، صفحة 178) ومثل هذا الموقف الذي يبدو غريبا وغير مقبول، نجده يقوم بتصرف يبدو غريبا حين يقف على قبر إيميلي في مارسيليا يتلو الفاتِحة «قرفصت قر بقبر إيميلي، ضممت أصابعي على مستوى شفتي وتلوت آيات قرآنية .ليس الأمر مستساغا ومع ذلك أفعله .في عيون الأئمة والقساوسة، نحن مختلفون، ولكننا متساوون في نظر المولى. قرأت الفاتحة، ثمّ آيتين من سورة ياسين.. » (ياسمينة، صفحة 279)

إنّ ماحي بالرغم من انتمائه للحركة الوطنية إلا أنّهضد مُمارسة العُنْف، ولا يُمْكِن إدْراجُه ضِمْن الثُّوار، ولذلك يختارُ البطلُ السّارد لعمه الاخْتِفاء (الموت) قُبيل قِيام ثوْرة التّحرير« لايرى عمي بلده يرفع السّلاح ضد المستعمر. لمْ يره القدر جديرًا بذلك، وإلا كيْف نُفسرُ وفاتَه قبل خمسة أشهر من لهب التّحْريرالمنتظر، والذي أُجِّل مِرَارًا» (ياسمينة، صفحة 210) وهذا التّعبير يُوحِي بتوحد الطّبيعة، البشر والقدر، فالعم ماحي أدّى دوْره على صعيد الحياة، وعلى صعيد السرد ليخْتَفِي ذات ليْلة

2.7 يونس- جوناس

نشأ يونس في بيئة محلية، وعاش في طفولته مأساة حرق محصولهم الزراعي، كما اكتوى بالسكن في جنان جاتو، ولكن سرعان ما تحول إلى بيت عمه، ليودع الحياة الأولى إلى حياة العيش الرغيد مثله في ذلك مثل أطفال الأوربيين، وبالرغم من أنه استطاع التعلم والتأقلم في الحياة الجديدة إلا أنّه لم ينس أصوله، صحيح أن هيئته

الفزيولوجية وتواجده في بيت عمه مكنه من الحياة الأوربية ولكن نظرة الآخرين جعلتْه يبقى ذلك الفتى العربي. كان أول ماتعرض له التمييز العنصري من قبل زملائه في المدرسة، والحادثة الأكثر إيلامًا بالنسبة له يوم أن تمتْ إهانة الطفل عبد القادر الطفل العربي في القسم والذي لم يُنْجز تمرينه، فأخرجه المعلم إلى المصطبة، وسأله عن سبب عدم إنجازه للواجب، وحينما لم يستطع الرد قال المعلم للتلاميذ : «هل يمكن لأحد كم أن يقول لي لماذا لم ينجز عبد القادر تمرينه؟ "دون أن يرفع أصبعه،أجاب موريس باندفاع" : لأنّ العرب كسالى يا سيّدي ."إن القهقهات التي انطلقت حولي سحقتني»(ياسمينة، صفحة 66) والحادثة الأخرى التي صدمته هي حب إيزابيل زميلته له، واتخاذها له صديقا حميما ومشروع فارس الأحلام المستقبلي، ولكنّها ما إن علمتْ أنه عربي وأن اسمه يونس حتى صدته عنها واعتبرته كذابا

« ثمّ وبعد أن استرجعت أنفاسها، قالت بلهجة قاطعة:

-لسنا من عالم واحد، سيّد يونس. وزرقة عينيك غير كافية.

وقبل أن تصفق مصراعي النافذة في وجهي، شهقت شهقة ازدراء وأضافت:

-إنني من عائلة روسيليو، هل نسيت؟هل تتصورني متزوجة مع عربي؟ ..الموت أفضل..» (ياسمينة، صفحة90)

كان لهذه الواقعة أثرها في نفس يونس رمت به في الحضيض، بل ردّته إلى الأصول فقال: «أخرجتني إيزابيل من قفص ذهبي لترميني داخل بئر » (ياسمينة، صفحة 90) ومنذ ذلك الوقت صار يونس حذرا، وفضلا عن ذلك فهو يعيش في وسط لا يتواجد به الأهالي إلا بصفتهم عمالا، ولا يسمع في حقهم إلا القدح، «ابتداء من هذا الإنذار الأول، أصبحت أحذر جيدا أيناً ضع قدمي .لاحظت أيضا أنه لا يوجد أي حايك عربي أبيض اللون يحلق في فضاء أزقة قريتنا، وأنّا لأسمال المعمّمة التي ترهق نفسها في البساتين من الفجر إلى غروب الشمس، لا تتجرّأ حتى على الاقتراب من ضواحي ريو صالادو، القرية الاستعمارية بامتياز، حيث وحده عمّي الذي يحسبه الكثير تركيا من تلمسان-استطاع أن يلحق نفسه بها، دون أن نعرف بالضبط الحظ الأعمى الذي أدخله إليها » (ياسمينة، صفحة 91)

ومع الحذر والتحفظ في الزواج بأجنبية بالنسبة ليونس إلا أن العلاقة التي تربطه بإيميلي بقيت قائمة وكذا ببقية الرفاق الذين عاش معهم في ريو صلادو،، وحتى أكثر الناس قسوة معه وهو كريستوف كان يونس مهووسا بلقائه، ولذلك لم يرتح له بال بل ولم يركب الطائرة إلا بعد أن التقيا وعبر كل منهما عن صفحه عن الآخر، وبالتالي فقد

سعا ياسمينة خضرا في روايته «إلى تقديم صورة إيجابية تجمع حضارتين مختلفتين، فصحح النظرة السلبية تجاه الآخر، ودعا أبطال عمله إلى حوار حضاري خلاق، مفعم بالتواصل، والتلاقح، والانفتاح، فأخذت الهويّة تتشكّل تحت طائلة الآخرومكوناته الغيرية، فكانت هذه الرواية بمثابة رد صريح على الخطاب الكولونيالي الذي حاول جاهداً تهميش الأنا الجزائرية، وتغييب ثقافتها المحلية» (حسني و قيدوم، تمثلات الهوية في رواية فضل الليل على النهار، 2021) ولعلّ لهذا السبب كان مخرج الفيلم المقتبس من الرواية الكسندر اركادي متحمسا لهذا العمل مقدرا قيمته في التقريب بين فرنسا والجزائر وهو ما أكده في تصريح مقتضب لإحدى المجلات الفرنسية المختصة في الفن السابع، فرواية ياسمينا خضراء كما قال "هي عبارة عن حالة إنسانية استثنائية، من شأنها أن تعيد النظر في إرث العلاقات التاريخية بين الجزائر وفرنسا، ذلك التاريخ المليء بالصدام." (وسط حراسة مشددة على شاطئ حمام الأنف المخرج العالمي أركادي، 2011) ويبقى الكاتب ياسمينة خضرا مثيرًا للجدل بكتاباته التي ينفي عنها شخصيا الطابع السياسي ويعتبرها أعمالا أدبية فنية بعيدة عن الأيديولوجية.

5 خاتمة

كان المجتمع الجزائري خلال الحقبة الاستعماريةيشهد تعدد لغويا وثقافيا وحضاريا، بين الهويات الأوربية التي تسكن الجزائر، وبين السكان الأصليين، وقد جذبت السلطة الفرنسية إليها وبوسائل مختلفة كثيرًا من السكان ليتخلوا كليا أو جزئيا عن هويتهم، وليندمجوا في الحضارة الوافدة. وبعد حصول البلاد على استقلالها تم ترحيل الأوربيين نحو فرنسا، ولكن الصراع استمر بين أبناء الشعب الواحد من خلال ظهور التيار الإسلامي.

تصدت رواية فضل الليل على النهار لهذه الثقافات المتصالحة حينا المتصارعة أحيانا، وصورت حركية المجتمع من الجهتين، وواكبت هجرة الأوربيين نحو فرنسا. صورت الرواية بصورة غير مسبوقة وضعية هذه الشريحة على الخصوصها مبيّنة ارتباطها بالأرض الجزائرية وحنينها للوطن الذي شهد ميلادها. هذا الصوت مسكوت عنه في الخطابات السياسية المحلية، لكن الجرأة الروائية مكنت الأديب ياسمينة خضرة من قول مالم يقله الآخرون، وهو بذلك يقدم أدبا مختلفا مضيفا صوتا آخر سيجد صنف كبير من القراء أنفسهم فيه. إنّه صوت إنسانيبعيد عن الصراعات وعن المصالح، وهو الحنين الذي يربط فردا جزائريا بأصدقاء الطفولة والشباب، وبذلك فإن القارئ للرواية سيجد نفسه من كل الهويات داخل هذا العمل الأدبي الذي يضع السياسة والدين

والأيديولوجيا جانبا ليقوم بتصوير نبض النفوس من مختلف الاتجاهات. والرواية في نهاية المطاف تسير مضيئة جوانب من حياة المرحلين عن الجزائر، وتتنكر تمامًا لعائلة يونس الأصلية، فلا يكلف البطل نفسه عناء البحث عن والدته وأخته بقدر مايبحث عن إيميلي التي يجدها لكنها ترفضه، ويبقى مع ذلك مرتبطًا بها، يسافر من أجل الوقوف على قبرها، ويرتاح نفسيا عندما يقرأ الرسالة التي تركتها له والتي تُعْلِن له أنها سامحته وتطلب منه أيضا العفو. بينما لاشيئ من ذلك يحث بالنسبة للأم ولا الأب أيضا . صحيح أن أباه كان يتراءى له بين الجموع، بين الحين والآخر، وصحيح أن هذا الأمر كان يؤرقه، ولكنه على مستوى الفعل لم يقدم شيئا يذكر مقارنة مع الحديث عن إيميلى وعن رفقة الصبا الذين توزعوا عبر الدول والمدن الأوربية.

قائمة المراجع

1. (30 نوفمبر, 2014). تم الاسترداد من الجزيرة: /https://www.aljazeera.net/encyclopedia/icons
2. .dfgf (fgf). *gdf*.fdg: dfg.
3. Yasmina, K. (s.d.). *ce que le jour doit à la nuit.* Juillard, Paris.
4. أحمد مولاي . (السنة الجامعية 2012-2013). *ملامح الهوية في السينما الجزائرية، رسالة دكتوراه بإشراف الأستاذ الدكتور بن ذهيبة بن نكاع، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، الجزائر.*
5. باختين ترجمة جميل نصيف التكريتي ميخائيل. (1986). *شعرية دوستويفسكي.* الدار البيضاء المغرب- بغداد العراق، المغرب- العراق: دار توبقال للنشر، المغرب ودار الشؤون الثقافية العراق.
6. توفيق قحام. (2016-2017). *أزمة الهوية في الرواية الجزائرية المعاصرة، أطروحة دكتوراه العلوم بإشراف الأستاذ الدكتور خرفي محمد الصالح.* جامعة الأمين دباغين سطيف2- الجزائر، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي.
7. ثريا محمود عبد المحسن. (بلا تاريخ). أزياء المجتمع الأندلسي من سنة 92 إلى 625ه. *مجلة كلية الآداب*، الصفحات 191-218. تاريخ الاسترداد 23 ديسمبر, 2021، من https://www.iasj.net/iasj/download/5cf1c516980bd21e
8. خضرا ياسمينة. (بلا تاريخ). *فضل الليل على النهار، ترجمة محمد ساري.*
9. شريفة بريجة. (2015-2016). *التغيرات السوسيو- ثقافية وأثرها على الهوية الثقافية للمجتمع الجزائري أطروحة دكتوراه بإشراف الأستاذ الدكتور سلاك بونوة، جامعة وهران2- الجزائر، كلية العلوم الاجتماعية.*
10. عادل بوديار، و آمال كبير . (01 مارس, 2021). التّقمص الكولونيالي وازدواجية الهوية في رواية فضل الليل على النّهار لياسمينة خضرة. *مجلة المدونة، دورية نصف سنوية، مصنفة ج، تصدرعن جامعة البليدة 2 - الجزائر، 08*(01)، الصفحات 917-936. تاريخ الاسترداد 17 ديسمبر, 2021، من https://www.asjp.cerist.dz/en/article/148856
11. عبد الله بن عمار. (03 حزيران, 2018). *الحايك ثوب الثورة الجزائرية الذي حاربه الاستعمار.* تم الاسترداد من الميادين.نت: /https://www.almayadeen.net/investigation
12. عصام بن الشيخ. (28 6, 2016). في نقد فلم "فضل الليل على النهار"، خين يبوح ياسمينة خضرة بأحاسيس الإنسان، ويكسر الطابوهات. *الحوار المتمدن.* تم الاسترداد من https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=522213
13. عمر أزراج. (14 جوان, 2018). الجزائر والأقدام السوداء.. جدل الموروث الاستعماري. تاريخ الاسترداد 24 ديسمبر, 2021، من https://alarab.co.uk/
14. فاطمة جابري، و بلقاسم مالكية. (جوان, 2018). مفردات الألبسة في ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي- دراسة في الدلالات والأبعاد-. *مجلة مقاليد، 6*(6)، الصفحات 149-160. تاريخ الاسترداد 23 ديسمبر, 2021، من https://www.asjp.cerist.dz/en/article/134698

15. فرانس 24. (10 مارس, 2012). *الذكرى الخمسون لاستقلال الجزائر*. تاريخ الاسترداد 24 ديسمبر, 2021، من https://www.france24.com/ar/20120310-france-algeria-anniversary-50-years-black-feet-pieds-noirs
16. لشروق أونلاين. (18 مارس, 2012). *اتفاقيات إيفيان قننت حقوق الفرنسيين والجزائر لم ترتكب تجاوزات ضد الأقدام السوداء*. تاريخ الاسترداد 24 ديسمبر, 2021، من https://www.echoroukonline.com/
17. محمد بوعزارة. (06 ماي 2020). الأرض والإنسان. *الشعب أونلاين، جريدة الكترونية تصدر عن مؤسسة الشعب*. تم الاسترداد من http://www.ech-chaab.com/ar/
18. محمد نهران. (1994). *مدخل إلى المنطق الصوري*. القاهرة، مصر: دار الثقافة للنشر والتوزيع.
19. نفيسة دسوقي. (11 اغسطس, 2019). *ظاهرة اجتماعية: الخرافة.. الابن الشرعي للخوف والقهر*. تاريخ الاسترداد 23 ديسمبر, 2021، من https://aswatonline.com/2019/08/11/
20. نهاد حسني، و ميلود قيدوم. (15 مارس, 2021). إشكالية الهُوية في ظل الرواية الجزائرية – عمارة لخوص- ياسمينة خضرا أنموذجا. *مجلة علوم اللغة العربية وآدابها،مجلة مصنفة ج، كلية الآداب واللغات، جامعة الوادي، 13*(01)، الصفحات 2359-2381. تاريخ الاسترداد 17 ديسمبر, 2021، من https://www.asjp.cerist.dz/en/article/146995
21. نهاد حسني، و ميلود قيدوم. (- جوان, 2021). تمثلات الهوية في رواية فضل الليل على النهار. *مجلة إشكالات في اللغة والأدب، دورة سداسية مصنفة ج، جامعة تمنراست- الجزائر، 10*(02)، الصفحات 11-33. تاريخ الاسترداد 17 ديسمبر, 2021، من https://www.asjp.cerist.dz/en/article/152816
22. *وسط حراسة مشددة على شاطئ حمام الأنف المخرج العالمي أركادي*. (05 جوان, 2011). تاريخ الاسترداد 27 ديسمبر, 2021، من منتديات تونيزياسات: https://www.tunisia-sat.com/forums/threads/1763960/
23. ويكيبيديا، الموسوعة الحرة. (31 جويلية, 2021). *مصالي الحاج*. تاريخ الاسترداد 25 ديسمبر, 2021، من https://ar.wikipedia.org/wiki/